الفصل الرابع

موقف الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى

لقد شهد العالم عدة حضارات منها حضارات بائده قد انتهت دون أن تترك أثراً، ولكن هناك حضارات كانت لها آثاراً مختلفة على المحيط الذي ولدت فيه تلك الحضارة، فمن الحضارات التي وجدها الإسلام عند شروق شمسه الحضارات الآتية والتي سوف نرى كيف تعاملت معها الحضارة الإسلامية:

١- الحضارة الرومانية.
٢- الحضارة اليونانية.
٣- الحضارة الهندية.
٤- الحضارة اليابانية والصينية.
٥- الحضارة الفارسية.

لقد ولدت الحضارة الإسلامية مع بزوغ فجر الإسلام حيث كانت البشرية في حاجة ماسة لمن ينقذها من ليلها الحالك، وذلك بعدما أفسدت الحضارة اليونانية بوثنيتها والحضارة الرومانية ببطشها وجهلها أفسدوا كل نور من أنوار الرسالات السماوية.

والحضارة الإسلامية تتمثل في مراحلها التاريخية التي مرت بها وهي :

١- دولة النبوة.
٢- دولة الخلافة الراشدة.
٣- دولة بني أمية.
٤- دولة بني العباس.
٥- الدولة العثمانية.
٦- الدولة القطرية (هذه أضعف المراحل والدولة هنا مقودة وليست قائدة).
٧- دولة الخلافة المتوقعة.

إن الحضارة الإسلامية شاملة لكل مناحي الحياة؛ لأن هذه الحضارة تستمد قوتها من رسالة الإسلام الخالدة. فالإسلام جاء من أجل الإنسان وهو الهدف الأول، والإنسان مكلف بعمارة الأرض، وعمارة الأرض الحقيقية تتم بتنفيذ أوامر الله تعالى خالق هذا الكون والمبدع له بغير مثال سابق.

فالحضارة الإسلامية هي حضارة القيم والمعاني السامية التي ينبغي للإنسان أن يعرفها ويحيا عليها.

وبما أن الحضارة من أهم أركانها وأسها العقيدة. وما من أمة خلت في الأرض إلا لها عقيدة إما عقيدة صالحة أو فاسدة. لقد أسس الإسلام الدولة الإسلامية الأولى وهي دولة النبوة، فهذه الدولة قامت على أسس قوية ومتينة كلها مبنية على منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وهذه الدولة النبوية إنما بدأت حقيقة بعد الهجرة إلى المدينة؛ لأن الدعوة كانت مكتومة النفس والأنفاس في حصار من كفار قريش، ولكن بعد الهجرة وجدت الدعوة المجال الرحب والواسع، وقد انطلقت الفتوحات الأولى، وقد تمثلت في الغزوات والسرايا التي تخرج بتوجيهات النبي ﷺ.

فخلال ثلاث وعشرين عاماً كان جهد النبي ﷺ مركزاً على التعليم والجهاد، ولم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ما تم فتح الجزيرة العربية.

إن من أهم أسس دولة المدينة التي قامت عليها:

١. بناء مسجده الشريف الذي أصبح منارة للعلم وملتقي لأصحاب النبي ﷺ ومكاناً عاماً تناقش فيه جميع قضايا الأمة، بل حتي التدريب كما حدث من الجيش من لعبهم بالحراب والدروق يوم العيد، وذلك في حياة النبي ﷺ وحضوره لهذا.

٢. المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والانصار. وقد وصلت هذه المؤاخاة إلى غايات بعيدة. حيث كان الرجل يقول لصاحبه إن كانت له زوجتان ولم تكن له زوجه أنظر أي الزوجتين تريد فأطلقها لتتزوجها فما

كان رده إلا أن يقول له بارك الله لك في أهلك. وهذا غاية الإيثار ويبين مدى ما وصلت له هذه الاخوة من المعاني الجميلة الراقية، علماً بأن الناس كانت بينهم عدوات وثارات فسبحان مقلب القلوب.

٣. وثيقة المدينة وهي وثيقة جاءت لتنظيم علاقة المسلمين وغيرهم من أهل المدينة خاصة اليهود. ولولا أن اليهود خرقوا ما في هزة الوثيقة من العهود لما خرجوا من المدينة، ولكن اليهود بفطرتهم المنحرفة واعتقادهم أنهم شعب الله المختار، بدأوا المكر والخداع والخيانة فكان مصيرهم الطرد والقتل وهذه لمحة سريعة عن دولة النبوة والاسس التي قامت عليها.

بعد دولة النبوة جاءت دولة الخلافة الراشدة التي بدأت بخلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وانتهت بخلافة علي ﷺ. وقد سارت هذه الدولة على منهج دولة النبوة، وإن كانت قد أصابتها هزة عنيفة بمقتل عثمان ﷺ، وكذلك ما حدث من خلاف بين علي ﷺ عند مبايعتة للخلافة ومعاوية ﷺ.

ثم جاءت بعد ذلك دولة بني أمية التي بدأ بها الملك فكان أول ملك للمسلمين معاوية ﷺ.

كانت الحضارة الإسلامية متسامحة جداً مع الحضارات التي سبقتها مع أنها وجدت مقاومة من تلك الحضارات التي فُتحت مواطنها كالحضارة الرومانية والفارسية.

إن ما وجدته الحضارة الإسلامية من موروث سابق لتلك الحضارات، نظرت إليه من ناحية انسجامه مع قيم الحضارة الإسلامية.

إن الفتوحات الإسلامية كانت طوق نجاة لكل الفئات المضطهدة خاصة إذا علمنا أن الإسلام غرس مبدأ حرية الاعتقاد فإن الناس تُرك لهم حرية الاعتقاد، فمن أسلم كان له ما للمسلمين ومن لم يسلم فعليه أن يدفع الجزية مقابل حمايته والدفاع عنه من قبل الدولة المسلمة، قال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)**﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

وقد مثل الإسلام خلاصاً للكثير من المضطهدين من قبل الكنيسة لآرائهم المخالفة لتوجيهات الكنيسة (لأول مرة يتحرر أصحاب المسيحية كالنساطرة القائلين بطبيعة واحدة للمسيح من اضطهاد من قبل كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر)[1].

لقد طورت الحضارة الإسلامية كل مناحى الحياة في البلاد التي فتحها الإسلام، وقد تمثل هذا التطور الهائل في علم الفلك والطب والهندسة والزراعة وفن العمارة وكذلك أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأولى في تلك البلدان.

لقد تغلغلت الحضارة الإسلامية إلى العمق الأوربي والأسيوي على السواء، وتأثرت هذه البلاد المفتوحة بكل ماهو عربي إسلامي، والواقع أنه كان للشرق حينئذ تجارة واسعة المدى مترامية الأطراف تكاد تختفي البلاد المسيحية في ظلها. تجارة تمتد عبر بحر الخزر والفولجا إلى الشمال، شاملة كل الشواطئ وجزر البلطيق، وقد لقطت أرض تلك البلدان آلافاً بل ملايين من العملة العربية، من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر وإن في هذا دليلاً على مدى انتعاش الحضارة العربية، ومدى انتشار تجارة لم تقف أحكام دينية متحيزة في وجهها[2].

ومن العطاء الثري للحضارة الإسلامية أن طورت صناعة الورق الذي يحتاجه كل أصحاب الأقلام من مؤسسات حكومية وغيرها. وسار موكب صناعة الورق المنتصر هذا مطوفاً بسورية حيث ترك وراءه في دمشق وطرابلس قواعده أي مصانعه ماراً بفلسطين ومصر لينطلق منها إلى الغرب إلى تونس إلى مراكش وإسبانيا ومن غرب صقلية والأندلس. تعرفت بلاد الغرب على هذه المادة كثيرة النفع التي هي في الحقيقة إحدى دعائم الثقافة والحياة الروحية. أجل لقد فتح ورق الغرب هذا عصراً جديداً لم يعد العلم فيه وقفاً على طبقة معينة من الناس بل غدا مشاعاً للجميع ودعوة لكل العقول لأن تعمل وتفكر[3].

---

(١) زيغرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٦٦، دار الافاق، بيروت، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ط٢.
(٢) زيغرد هونكه، ص٢٧، مرجع سابق.
(٣) زيغرد هونكه، ص٤٦، مرجع سابق.

أثرت الحضارة الإسلامية في الطب بصورة لافتة تتبين من خلال الخدمة والمراقبة التي تقدم للمريض، فهذه الكاتبة زيغرد تورد هذا الحوار الذي جرى بين مريض وأهله [تسألني إن كنت بحاجة إلى نقود! فأخبرك بأني عندما أخرج من المستشفي سأحصل على لباس جديد وخمس قطع ذهبية حتى لا أضطر إلى العمل حال رجوعي مباشرة فلست في حاجة إذن إلى ان تلقاني هنا. إني الآن في قسم (د. الأرنوبادي) بقرب قاعة الجراحة، وعندما تدخل من البوابة الكبيرة، تعبر القاعة الخارجية الجنوبية وهي مركز (البولبكلينيك) حيث أخذوني بعد سقوطي وحيث يذهب كل مريض أول مايذهب لكي يعاينه الأطباء المساعدون وطلاب الطب. ومن لا يحتاج منهم لمعالجة دائمة في المستشفي تعطى له وصفته فيحصل بموجبها على الدواء من صيدلية الدار. وأما أنا فقد سجلوا اسمي هناك بعد المعاينة وعرضوني على رئيس الأطباء، ثم حملني ممرض إلى قسم الرجال، فحمني حماماً ساخناً وألبسني ثياباً نظيفة من المستشفي.

وحينما تصل ترى إلى يسارك مكتبة ضخمة وقاعة كبيرة حيث يحاضر الرئيس في الطلاب، وإذا ما نظرت وراءك يقع نظرك على ممر يؤدي إلى قسم النساء..] كل شئ هنا جميل للغاية ونظيف جداً: الأسِّرة وثيرة وأغطيتها من الدِقمس الأبيض والملاءة بغاية النعومة والبياض كالحرير، في غرفة من غرف المستشفي تجد الماء جارياً فيها على أشهى ما يكون. وفي الليالي القارسة تدفئ كل الغرف. وأما الطعام فحدث عنه ولا حرج! فهناك الدجاج أو لحم الماشية يقدم يومياً لكل من يوسعه أن يهضمه.

إن الأوضاع التي يحدثنا عنها هذا الكتاب تشبه إلى حد بعيد ما نراه في القرن العشرين العظيم. وبالفعل فإن هذا الكتاب يصف لنا أحد المستشفيات التي كانت تبنى قبل ألف سنة، في كل المدن العربية الكبيرة الواقعة ما بين جبال الهملايا وجبال البيرينيه. فقد كان في مدينة قرطبة وحدها خمسون مستشفي في أواسط القرن العاشر[1].

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٤٨٨، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ترجمة عادل زعتير.

عدد المؤلفين من أطباء العرب كبير للغاية، وخصص ابن أبي أصبيعة مجلداً من كتابه لتراجم أطباءالعرب. والرازي هو من أشهر اطباء العرب، وولد الرازي سنة ٨٥٠م وتوفي ٩٣٢م بعد أن زاول الطب في بغداد خمسين سنة[١].

لقد قابلت الحضارة الإسلامية الحضارات الأخرى بسماحة غير معهودة، شهد بذلك القاصي والداني ولعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم حتى أن الملك الفارسي كيروس قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين فيما يدعيه بعضهم من اتهامات بالتعصب والوحشية، إن هذا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة.

والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عدداً ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب، وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف والحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة [٢].

لقد تجلت سماحة الحضارة الإسلامية أنها لم تحجر على الشعوب المغلوبة أن تمارس كل ما تراه مهم بالنسبة لها، سواء في المعتقدات أو المعاملات فهذه إسبانيا التي فتحها العرب وأقاموا على أرضها دولة الاندلس التي استمرت لثمانية قرون يشهد التاريخ على سماحة تلك الحضارة، واستطاع العرب ان يحولوا إسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا على هذين الأمرين، بل آثر في أخلاق الناس أيضاً، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت قلت حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حلم عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر اشبيلية النصراني الذي عقد سنة ٧٨٢م

(١) نفس المرجع، ص٤٩٠.
(٢).زيغردهونكه، ص٣٥٨، مرجع سابق.

ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد سنة ٨٥٢م، وتعد كنائس النصاري الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم الكثير من النصاري، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانيا العربية بلد أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثير جداً [١].

وقد أدى التسامح والتعامل الراقي إلى كسب قلوب الشعوب التي فتحت بلادها حتى الناس أصبحوا يتكلمون اللغة العربية، ويقلدون العرب (وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس، حتى من بقى على دينه إلى السادة الفاتحين يقلدونهم في طرق معيشتهم وسلوكهم ويتمثلون بأخلاقهم، ويأخذون عنهم لغتهم ويسمون أولادهم بتسميات عربية، وبمرور الوقت يصير ملبسهم ومعيشتهم وسلوكهم عربياً. حتى أن الطبيب من بعلبك، والتاجر من الموصل، وطالب الفلسفة من غرناطة، يلتقون في سوق القاهرة أبناء شعب واحد لا يستطيع أحد ان يفرق بينهم [٢].

لقد أخذت اللغة العربية المكان الذي تستحقه فأصبحت لغة الإدارة والسياسة والقانون بل لغة للتجارة والمعاملات وجمهور الناس. ومن ذا الذي يريد أن يخرج عن لغة الجماعة ؟ وكيف يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد، فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى تلك اللغة، حسبما كان يشكو أساقفة إسبانيا بمرارة. فقد اندفع الناس الذين بقوا على دينهم في هذا التيار يتعلمون اللغة العربية بشغف، حتى أن اللغة القبطية مثلاً ماتت تماماً، بل أن اللغة الآرمية لغة المسيح قد تخلت عن مركزها إلى الأبد، لتحتل مكانة لغة محمد ﷺ. كما أنه وجب ترجمة بيانات البابا وقرارات المؤتمرات المسيحية في القرن التاسع إلى العربية للأقلية المسيحية في الأندلس التي لم تعد تفهم اللغة اللاتينية، وهكذا

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٢٦٧- ٢٧٧، مرجع سابق.
(٢) زيغرد هونكه، ص٣٦٦، مرجع سابق.

تحولت لغة قبلية في مائة عام إلى لغة عالمية. لبست اللغة ثوباً ترتديه اليوم لتخلعه غداً، لقد وجدت اللغة العربية تجاوباً من الجماعات وامتزجت بهم وطبعتهم بطباعها. فكونت تفكيرهم وشكلت قيمهم وثقافتهم [1].

وإذا كانت سماحة الحضارة الإسلامية وتعاملها الراقي مع الشعوب التي فتحت بلدانها قد أكسبها ود هذه الشعوب حتى أصبحت لغة الحضارة الإسلامية هي اللغة السائدة. فلنقلب صفحات التاريخ لنقف كيف تعامل النصاري مع المسلمين حينما أفلت دولة الإسلام في الأندلس.

وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة ولكن سنة ١٤٩٩م لم تكن حتى تحل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قروناً والذي لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانيا، وكان تعميد العرب كرهاً فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة، ونصح كردينال طليطلة التقيٌ الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءاً وشيوخاً وولداناً، ولم ير الراهب الدومينيكي بليداً الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ومن بقي على دينه منهم، وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخري ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم..... [2].

هذا طرف من ممارسات الصليبين الذين أوغلوا في التشفي والانتقام ولم يقابلوا سماحة الإسلام بما يستحق، وهذا يدل على البون الشاسع بين سلوك العرب الفاتحين وسلوك الصليبين. هناك نظرية يطرحها الاستعمار من خلال منطق الاستعلاء باللون أو الجنس تقول هذه النظرية: إن هناك حضارة عالمية واحدة وإن العرب والمسلمين كانوا حلقة من حلقات هذه الحضارة التي ظهرت

---

(١) زيغرد هونكه، ص٣٦٧- ٣٦٨، مرجع سابق.
(٢) غوستاف لوبون،، ص٢٧١ -٢٧٢، مرجع سابق.

على شواطئ البحر الأبيض، قوامها اليونان والرومان ثم الغرب في العصر الحديث. ويردد هذه النظرية بعض كتاب الغرب ومن بينهم جورج ساركون في كتابه:

والواقع أن الحضارة الإسلامية بالرغم من أنها أخذت الخيوط الأولى لما كان معروفاً في العالم القديم من علوم، فإنها أبدعت حضارة جيدة لها ذاتيها الخاصة وطابعها المميز، وإن الإسلام قد قدم مفهوماً جيداً (للتحضر) يختلف عن مفهوم (المدنية) المادي المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا، وذلك الذي قدمه الإسلام إنما هو بمثابة الوعاء الذي تصاغ فيه المدنية من بعد، وتصهر فيه العلوم، ذلك هو التوحيد والإيمان بأن الله تبارك وتعالى هو الخالق الرازق والصانع، وهو القائم بقدرته من وراء الكون كله ساعة بعد ساعة ولحظة بعد لحظة، وأنه هو الذي أنشأ هذا الكون من العدم وأنه أقام له قوانين ونواميس يتحرك من خلالها لأجله المحتوم، وقد أطلع الله تبارك وتعالى البشرية على هذه القوانين والنواميس حين جاءت رسالة الإسلام بالقرآن تضع هذه المفاهيم بين يدى الإنسان لينتفع بها في سعيه إلى استكانة الكون واستخراج ثروات الأرض. وإن هذه الدعوة وجهت إلى البشرية بالنظر إلى السموات والأرض والتفكر فيهما كانت منطلق (التجريب) الذي عرفه المسلمون وحاكموا إليه كل الفكر القديم الذي عرفته حضارات بابل وفارس والفراعنة واليونان والرومان، والفراعنة أخطأوا ورُفضت ما كان منه قائماً على السحر والخرافة وحولت خلاصة هذا التراث القديم إلى مادة خام صنعت منها (المنهج العلمي التجريبي) الذي قدمه العلماء المسلمون للبشرية.

هذا في جانب العلم، وأما في جانب الحياة فقد قدم الإسلام مفهوم المساواة والإخاء الإنساني ووحدة البشرية كلها لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوي، وبذلك شجب النزعة العنصرية وقضي على مفهوم العبودية الذي قامت عليه حضارات الفراعنة واليونان والفرس والرومان [1].

(١) الجندي، الحضارة، ص١٦٠-١٦١، المكتب الإسلامي، بيروت.

إن الحضارة الإسلامية أخرجت أوروبا خاصة من عهد الظلام والخرافة إلى عهد النور والضياء وكل ما شهدته أوروبا من نهضة، إنما يعود إلى الحضارة الإسلامية.

إننا نختم هذه المقطوعة بما شهد به أهل ذلك الزمان وقبل ذلك بمائة عام تقريباً كتب ألفارو أسقف قرطبة حينئذ: كثيرون من أبناء ديني يقرأون أشعار العرب وأساطيرهم ويدرسون ما كتبه علماء الدين وفلاسفة المسلمين، لا يخرجوا عن دينهم وإنما ليتعلموا كيف يكتبون اللغة العربية مستخدمين الأساليب البلاغية. أين نجد اليوم مسيحياً عادياً يقرأ النصوص المقدسة باللاتينية ؟ من منكم يدرس اليوم الكتاب المقدس أو ما قالته الرسل ؟ إن كل الشباب النابه منصرف الآن إلى تعلم اللغة والأدب العربيين فهم يقرأون ويدرسون بحماسة بالغة الكتب العربية ويدفعون أموالهم في اقتناء المكتبات ويتحدثون في كل مكان بأن الأدب العربي جدير بالدراسة والاهتمام، وإذا حدثهم أحد عن الكتب المسيحية أجابوه بلا اكتراث: أن هذه الكتب تافهة لا تستحق اهتمامهم، يا للهول لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية بينما تجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم [1]. لقد بنت الحضارة الإسلامية مدناً عالمية شع منها نور العلم إلى أقطار العالم جميعاً منها بغداد وقرطبة، والنهضة الأوربية وغيرها مدينة لهاتين العاصمتين العالميتين في ذلك الزمان.

(١) زيغرد هونكه، ص٥٢٨- ٣٦٨، مرجع سابق.